غَلبة المصطلحِ البصريّ
في الدرسِ اللّغوي
قراءةٌ في الخلاف وأسبابه

م.د. تغريد حريز محمد
جامعة بغداد – كلية الآداب
قسم اللغة العربية

الملخص :

إنَّ الحديث عن بواكير المصطلح النحوي يرتبط نوعاً ما بالحديث عن بدايات تأسيس علم النحو، والروايات التي قدّمت في ذلك على أنَّ ما كان من مصطلحات نحوية في البدايات لا تشكل في حدِّ ذاتها إلاّ إرهاصات أولية على جادّة الطريق في علم النحو، فمثلاً أشارت الروايات إلى أن أبا الأسود قد قدّم ما يُعرف بمصطلح (النقط) وهو ما يدلُّ على حركات الإعراب، ومصطلح (الغنّة) الذي يدلُّ على التنوين، وغير ذلك إنما يُشكل جانباً وصفياً لما تُمثله دلالة هذه المصطلحات. وقد اختلف في تحديد السماع والقياس عند البصريين، وربما يعود ذلك إلى أن البصرة بحكم موقعها الجغرافي على الخليج العربي جعل عملية الاختلاط بغير العرب عملية سهلة، نتيجة الملاحة البحرية، وهذا بدوره جعل البصريين يتحرّون الدقة في السماع اللغوي من العرب، فضلاً عن القياس على الكثرة المطردة. وتثبت الدراسات غلبة المصطلح البصري على منافسه الأول المصطلح الكوفي، فضلاً عن بقية المذاهب إنْ عدَّ لها تأثير كالمذهب البغدادي وغيره، وفي هذا البحث محاولة لاستجلاء هذه الغلبة، ومصدر القوة في الدرس البصريّ من خلال مقدمة عن المصطلح النحوي ومحورين، تضمن الأول: أسباب غَلبَة المصطلح البصري، وتضمن الثاني: موازنة بين المصطلح البصري وغيره.

المدخل: المصطلح النحويّ – الظهور والتطوّر:

اختلف الباحثون في كلمة (نحو) وأصلها، وترددت أقوالهم في ذلك، فقال بعضهم إنها مأخوذة من السريانية ، وتبنى هذا الرأي الأزهري في (تهذيب اللغة) وقد نقله ابن منظور من دون أن يعلق عليه فقال: " النحو: إعراب الكلام العربي والنحو: القصد والطريق، يكون ظرفاً ويكون اسماً، نحاه ينحوه وينحاه نحواً واستنحاء، ونحو العربية منه إنما هو انتحاء سمت لكلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكبير والإضافة والنسب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذّ بعضهم عنها رُدَّ به إليها، وهو في الأصل مصدر شائع أي نحوت نحواً، كقولك: " قصدت قصداً " ثم خصّ به انتحاء هذا القبيل من العلم، كما أن الفقه في الأصل

مصدر فقهت الشيء أي عرفته، ثم خصّ به علم الشريعة من التحليل والتحريم"[١]. ولم يستعمل النحويون كلمة (نحو) للدلالة على هذا العلم وما يتبعه من دراسات خاصة به، بل كان يعرف قديماً " بعلم العربية " إذ إن هذه التسمية ظهرت في عهد الطبقة الثانية من علماء البصرة بعد أن اشتهرت عنها مؤلفات اتسمت بأنها نحوية وصرح فيها باسم النحو فكلمة (نحو) وما اشتق منها إنما استعملت في زمن أبي الأسود الدؤلي وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) (ت ٤٠هـ) ، والدليل في ذلك ما أثبتته الروايات التي وردت بقول أبي الأسود (ت ٦٩هـ) إذ يقول: " لا أظن يسعني إلاّ أن أضع شيئاً أصلح به نحو هذا، أو كلام هذا معناه فوضع (النحو)"[٢].

وقول علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) لأبي الأسود (ت ٦٩هـ) بعد أن دفع إليه الصحيفة التي وضع فيها بعض أقواله في النحو: " أنحُ هذا النحو، وأضف إليه ما وقع إليك "[٣] وهذا دليل واضح على إيمان عليّ(رضي الله عنه) بعقلية أبي الأسود هو الذي أوحى إليه بهذه العبارة (وأضف إليه ما وقع إليك). وعن سبب تسمية هذا العلم (نحواً) فقد تحدث الباحثون كثيراً وظهرت آراء ومذاهب عدة، ولعل أصح أقوالهم ما ذهب إليه القدماء وما نقله ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) إذ قال: " إنما سُمّي النحو نحواً، لأنّ أبا الأسود الدؤلي قال متحدثاً عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وقد ألقى إليه شيئاً في أصول النحو، " فاستأذنته أن أضع نحو ما صنع " فسمّي ذلك نحواً[٤]. ورُوِي من حديث علي (رضي الله عنه) مع الإعرابي الذي أقرأه المقرئ: " إنَّ الله بريءٌ من المشركين ورسولِه "[٥] بكسر اللام: حتى قال الإعرابي: برئت من رسول الله، فأنكر ذلك عليّ، ورسم لأبي الأسود من عمل النحو ما رسمه، ما لا يجهل موضعه "[٦].

وفي ذلك الوقت، كان (النحو) يعني (العربية) بمعناها العام من إعراب وصرف وأصوات وبلاغة وغير ذلك، وهذا الاصطلاح لغوي صرف، لا يقصد به المعنى الاصطلاحي المعروف في علم البلاغة، ولا هو ضد الحقيقة عند البلاغيين، إذ يقول إبراهيم مصطفى: " وما كانت كلمة (مجاز) إلى ذلك العهد (عهد أبي عبيدة ت ٢٠٨هـ) قد خصصت بمعناها الاصطلاحي في البلاغة وما كان استعمال أبي عبيدة لها إلاّ مناظرة كلمة (النحو) في عبارة غيره من علماء العربية، فأنهم سموا بحثهم النحو أي سبيل العرب في القول واقتصروا منه على ما يمس آخر الكلمة[٧]، وهو ما يسميه الفارابي (ت ٣٣٩هـ) بعلم قوانين الأطراف[٨]، وسمي " بحثه المجاز أي طريق التعبير " ولكن مجاز أبي عبيدة ليس كتاب بلاغة، فالبلاغة كعلم لم تنفصل عن النحو وعلوم العربية حتى ذلك الوقت وما استقرت كعلم له حدوده وأهدافه وحقائقه إلاّ بعده بأجيال، ولكنه محاولة لفهم العربية بأسلوب يختلف عن الأسلوب الذي سلكه سيبويه في كتابه، ويبدو أن هناك مصطلحات أخذت تسير

جنباً إلى جنب ومنها (علم العربية، اللحن، الإعراب، المجاز، النحو) عند نحاة القرن الأول، وأوائل القرن الثاني الهجريين، فأبو الأسود الدؤلي ونصر بن عاصم (ت ١٢٧هـ)، ويحيى بن يعمر العدواني (ت ١٢٩هـ)، وميمون الأقرن، وعنبسة الفيل، وعبد الرحمن بن هرمز (ت ١١٧هـ) ، لم يؤثر عنهم استعمال اصطلاح (النحو)، وهو أمر طبيعي، لأن علم النحو نشأ نشأة فطرية، شأنه في ذلك شأن سائر العلوم. إذ كان العلماء يرصدون ظواهره الأولى ويخضعونها لملاحظاتهم، ودليل ذلك ما قاله ابن السراج (ت ٣١٦هـ) في كتابه الأصول: "النحو علم استخرجه المتقدمون من استقراء كلام العرب"، فقام النحو فناً قبل أن يكون علماً، وأخذت الظواهر اللغوية تظهر شيئاً فشيئاً، وأخذ سيرها نحو الاستقلال بنظريات وقوانين تضع لهذا العلم حدوده واصطلاحاته[٩]. ولعلّ أول من استعمل مصطلح (النحو) عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ت١١٧هـ فهو: " أول من بعج النحو، ومدّ القياس والعلل "[١٠] ودليل ذلك عندما سأله يونس بن حبيب (ت ١٨٢هـ) : " هل يقول أحد الصويق؟ بمعنى السويق، فقال له: نعم، عمرو بن تميم تقولها، وماذا تريد إلى هذا؟ عليك بباب من النحو يطرد ويقاس "[١١] ونرى هنا أن ابن أبي إسحاق يقرن النحو بالقياس.

فضلاً عن ذلك كان علماء العربية الأوائل يهتمون بعلوم أخرى غير علمهم بالنحو ومن هذه العلوم الحديث والفقه والقراءات، فكانوا يميلون إلى اكتسابها متأثرين بطرائق أهلها، من خلال عنايتهم بالسند ورجاله وتجريحهم وتعديلهم وطرائق تحمل اللغة، فكانت لهم نصوصهم، ولهم طبقات ورواة، وطُرز في بناء القواعد على السماع والقياس والإجماع كما فعل أولئك الفقهاء[١٢]. ولم يتوقف الأمر إلى هذا الحدِّ إنما تعداه إلى أن النحويين صنفوا القبائل أصنافاً بحسب فصاحتها وسلامة لغتها، ويعيب بعضهم بعضاً إن تجرأ فأخذ من حضري أو من غير المشهود لهم بسلامة اللغة، وابن أبي إسحاق حين يقيم اطراد النحو على القياس ليكون قد رسم حدوداً واضحة لمسار النحو كما يقول ابن الأنباري: " لأن النحو كلّه قياس، فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو"[١٣]. وقد وصفه أبو الطيّب اللغويّ (ت ٣٥١هـ) بقوله: " كان يقال: عبد الله أعلم أهل البصرة وأعقلهم فرّع النحو وقاسه "[١٤].

وهذا دليل واضح على أن اصطلاح (النحو) كان على يد ابن أبي إسحاق الحضرمي قبل أن يعرفه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ) بزمن، فهو الذي قال للفرزدق في مديحه يزيد بن عبد الملك:

مُسْتَقْبِلِيْنَ شمالَ الشَّام تَضْرِبُنا بِحَاصبٍ كنديفِ القُطْنِ مَنْثُورِ
عَلَى عَمائِمِنا يُلْقَى وأرْحُلِنَا على زواحِفَ تُزْجَى مُخُّها رِيْرِ

قال ابن إسحاق: أخطأت إنما هي (رِيْرُ) وكذلك قياس النحو في هذا الموضع[١٥]. وقوله هذا فيه دليل واضح على ظهور هذا المصطلح ووضوحه عنده، وهناك دليل آخر هو

قوله ليونس بن حبيب (ت ١٨٢هـ) : " عليك ببابٍ من النحو يطرد ويقاس " وهذا أيضاً يُعدُّ دليلاً واضحاً وملمحاً آخر على أن النحو شيء معروف قبل عيسى بن عمر[١٦].

فانتقل اصطلاح النحو من المعنى اللغويّ وهو القصد والطريق إلى المعنى الاصطلاحي بوصفه علماً له قواعده وضوابطه وأقيسته الخاصة، إذ لم يجرِ هذا الانتقال بشكل مفاجئ إنما ظلت الطبقتان الأولى والثانية لا تعرفه، وفي ذلك يقول محمد الطنطاوي: " التسمية بالنحو بعد عصر (أي بعد عصر أبي الأسود) إلاّ أنها لم تتجاوز الطبقة الثانية "[١٧]. فكلّ ما ورد من لفظ (النحو) في عباراتهم لا يتعدى معنى القصد أو الناحية، إلى أن استطاع ابن أبي إسحاق أن ينقل هذا المصطلح ويعبر عنه بعلم العربية، والذي أصبح الإعراب جزءاً داخلاً فيه. ولنا في هذا الصدد أن نبيّن علاقة المصطلح بـ (النحو) أي الانتقال من المعنى اللغوي إلى المعنى العلمي؛ لأنهما كباقي الألفاظ اتخذت مدلولات علمية بعد مدة طويلة من معرفتها بمعناها اللغوي، ودليل ذلك (الحرف) فأول ما ينطق بكلمة (حرف) يتبادر إلى ذهننا معناه الاصطلاحي قبل معناه اللغوي فقد عرّفه ابن جني (ت ٣٩٢هـ) بقوله: " حرف الشيء إنما هو حدّه وناحيته، وسميت حروف المعجم حروفاً لأنها جهات للكلم ونواحٍ كحروف الشيء وجهاته المحدقة به ، ومن هذا سُمِّي أهل العربيّة أدوات المعاني حروفاً لأنها تأتي في أوائل الكلام وأواخره في غالب الأمر، فصارت كالحروف والحدود له "[١٨]. لذلك فالعلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للألفاظ علاقة متينة ولا يمكن أن تنفصل دلالياً. وهذا ما ساعد النحويين على الاتفاق في استعمال ألفاظ معينة في التعبير عن المعاني النحوية، والذي عبروا عنه بالمصطلح النحوي. فالاصطلاح لفظ محدد يستعمل للدلالة على ظاهرة معينة، وقد تتعدد الاصطلاحات للدلالة على ظاهرة معينة، فمثلاً الحشو والصلة والإضافة والزيادة كلّها اصطلاحات تطلق على حروف المعاني[١٩]. فالاصطلاحات التي بمعنى المصطلحات ها هنا عبارة عن الألفاظ المتعددة، كالكلمة وأنواعها من الاسم والفعل والحرف والكلام بأنواعه أي أنواع الكلام من الجمل الأربع الاسمية والفعلية والشرطية والظرفية[٢٠]. وانتساب (المصطلح) هنا إلى (النحو) وقولنا (المصطلح النحوي) فيعني تحديد دائرة الاصطلاح في ميدان النحو لتخصيصه بالبحث، كما تخصص لفظ (النحو) من قبل بالبحث في قواعد العربية، وأصبح يعني العلم بأصولها وإعرابها، وكما قال الطنطاوي في سبب التسمية بالنحو: " اسم العلم من وضع أهله ومصطلحهم لمقتضى الملابسات في نظرهم، وقد سلف أن أبا الأسود لما عرض على علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ما وضعه فأقره بقوله: " ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت "[٢١]. فآثر العلماء تسمية هذا العلم باسم النحو استبقاء لكلمة الإمام التي كان يراد بها أحد معاني النحو اللُّغوية والمناسبة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي[٢٢].

المحور الأول: أسباب غلبة المصطلح البصريّ

إنَّ المدرسة البصرية هي السابقة في الدراسات النحوية، بفضل نحاة هذه المدرسة وتلاميذهم الذين آلت إليهم رئاسة النحو، فعمدوا إلى بسط سلطان النحو البصريّ في مجالس الدرس إذ يمكن أن نؤرخ للمذهب البصري بزمن أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) واضح الاعجام، وإذا أردنا أن نتأخر قليلاً إلى البدايات الفعلية للمباحث النحوية فإننا نحط الرحال عند عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت ١١٧هـ) ، في حين النحو الكوفي يبدأ بأبي جعفر الرؤاسي (ت ١٩٠هـ) ، على الرغم من أن التأسيس الفعلي للمدرسة الكوفية على يد الكسائي (ت ١٨٩هـ) . ومهدوا أذهان الدارسين لتقبل النحو البصريّ المتأثر بالفلسفة، والقائم على الجدل والتعليل والاحتجاج، فأقبلوا عليه يناظرون ويدرسون ويستمعون إلى مسائل النحو واللغة، إذ وجدوا فيه نمطاً جديداً لم يعهدوه من قبل، فتأثر به الدارسون وتابعوهم فيما تعصبوا فيه، فكان ظهور النحو البصريّ منعطفاً للدرس النحوي، فبسط سيطرته على بيئات الدرس وحظوته بتشجيع الحكام والأُمراء ومؤازرتهم إيّاه وبهذا تكون مدرسة البصرة أسبق في الظهور بحوالي قرن من الزمن .

ولعلّ من أهم الأسباب التي أدت إلى غلبة المصطلح البصريّ طبيعة الدرس النحوي الكوفي من جهة، وسبيل القرّاء في الدرس من جهة أخرى، إذ أخذ الدارسون يعتمدون الرواية والسماع والمشافهة أصولاً للدرس النحوي، بعيداً عن الاعتبارات العقلية، والاحتجاجات والتعليلات والقياسات التي يمليها منطق العقل، فكان هذا، من وجهة النظر البصرية، إفساداً للنحو، وارتفاعاً بالنحو إلى أسفل على حد تعبير أبي محمد اليزيدي، إذ جاء في أبياته أولها:

كنا نقيسُ النحوَ فيما مَضى على لسانِ العرب الأوَّل

ولذلك تميز المنهج البصري باعتماد القياس ، واطرد استعماله عندهم ، ومن ثَمّ اضطروا إلى الاستغناء عن كثير من النصوص العربية لأنها لم تخضع لشروطهم الصارمة وعوضوا ذلك بتوسيع رقعة القياس والتركيز على الوصول إلى علة الحكم ، في حين كان الكوفيون يلتزمون النص وإن كان بيتاً واحداً يستنبطونه منه ، ويقيسون عليه من دون أن يلجأوا إلى تقليل الاحكام لأنهم كانوا يرون في النص غناء عن التعليل .

فضلاً عن ذلك ما أبداه العلماء من تحامل على الدارسين في بغداد ، والنحويين الكوفيين ، من ذلك تحامل أبي حاتم السجستاني (ت ٢٦٥هـ) على (علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩هـ) ويحيى بن زياد الفرّاء (ت ٢٠٧هـ) ، وأحمد بن يحيى) ودلَّ تحامله على تخبطهم في فهم طبيعة الدرس، وزعم أنّ أحدهم: " يتحفظ مسائل النحو بلا علل ولا تفسير، فيكثر كلامه عند من يختلف إليه، وإنما هَمَّ أحدهم إذا سبق إلى العلم أن يسيّر اسماً يخترعه لينسب إليه، فيسمي الجر خفضاً، والظرف صفة، ويسمون حروف الجر حروف الصفات

والعطف.... ونحو هذا من التخليط "[٢٤]. وما عابه غيرهم من العلماء على أبي العباس ثعلب (ت ٢٩١هـ) أنه (كان يدرس كتب الفرّاء وكتب الكسائي درساً، ولم يكن يعلم مذهب البصريين، ولا مستخرجاً للقياس ولا طالباً له، وكان يقول: قال الفرّاء وقال الكسائي، فإذا سئل عن الحجة والحقيقة في ذلك لم يُعرق في النظر"[٢٥]. فكان القدماء إذا درسوا النحو في غير منهجه فقد فتحوا الباب أمام الاعتبارات العقلية في الاحتجاج له والتعليل لظواهره، وكان الدارسون البصريون هم الذين فتحوا هذا الباب، موغلين في التأويل والتقدير، ومعمقين في القياس والتعليل، متأثرين بالاعتبارات الجدلية التي كانت سبيل المتكلمين في الدفاع عن العقيدة . في حين اعتمدت المدرسة الكوفية الرواية والسماع والاتباع ، وهذا أمر فرضته ظروف كل إقليم ، واتجاهه الفكري والثقافي والتأريخي أيضاً .

فكانت البصرة موطن الكلام والنظارة، كما كان ظهور المتكلمين يمهد السبيل للعقلية الجدلية التي أخذت مكانها في تاريخ الفكر والحضارة. كما كان المجتمع العربي الإسلامي منفتحاً على الثقافات الأجنبية حتى اكتمل ظهورها بالترجمة والنقل، فكان العصر العباسي هو عصر هذه النقلة الكبيرة للحياة العقلية، وكان لعصر المأمون الأثر الواضح في هذه النقلة، لأنه كان يفتح مجلس الخلافة أمام هؤلاء، وكان يشجع الفنون والعلوم والآداب والفلسفات[٢٦]. فكان الدرس النحوي البصري بدأ ينضج في هذه البيئة التي جعلت العقل وأحكامه فوق جميع الاعتبارات، ويتأثر بأساليبه، وإذا عرفنا أن كثيراً من النحويين كانوا من المتكلمين أدركنا عمق الصلة بين الدرس النحوي وأساليب المنطق والكلام، ومدى تأثره بأساليب المتكلمين، فكان الدارس النحوي يزداد اتصالاً بالفلسفة والمنطق حتى خضع لأسلوبها خضوعاً كاملاً عند نحاة القرن الرابع المناطقة[٢٧]. وكلُّ ذلك ظهر عند الدارسين وتمثل في نتاجهم عمق الاتصال بين العقلية العربية الإسلامية والعقليات الأجنبية من يونانية وهندية وفارسية واتسموا بسعة الاطلاع، وتعدد جوانب المعرفة، ومن هؤلاء: أبو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ) وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ).

فكان أبو حنيفة الدينوري ملماً بالثقافات الجديدة ،فقد كان كما تروي كتب الطبقات مهندساً وحاسباً وراوية موثوقاً بروايته وقد صنف العديد من الكتب وكانت ثقافته العربية عميقة وواسعة حتى كان أبو حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ) يفضله على الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ويرى أن لفظه (أعذب وأغرب) وأدخل في أساليب العرب من لفظ أبي عثمان[٢٨].

فقد بدأ التأليف عند البصريين مع المؤسس الحقيقي للمذهب وهو عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي وكتابة في الهمز ، ثم عيسى بن عمرو الثقفي مؤلف كتابي (الاكمال والجامع) وقد اعتمدها الخليل ومن تلاه من البصريين في الإملاء والتدريس ، ثم (الكتاب) لسيبويه ، ثم كتب محمد بن المستنير قطرب (كتاب العلل) و (كتاب الاشتقاق والتصريف)

ثم الجرمي الذي ألف كتباً مختلفة في النحو والصرف من أهمها (المختصر في النحو) و (كتاب الأبنية) ، ثم ابو عثمان المازني (ت ٢٤٧هـ) الذي وضع كثيراً من التعليقات والشروح على كتاب سيبويه ، منها (الديباج في جوامع كتاب سيبويه) وله كتاب في علل النحو ، وله كتاب في الصرف شرحه ابن جني سماه (المنصف) ثم المبرد (ت ٢٨٥هـ) وله من المؤلفات النحوية المقتضب ، وكتاب التصريف وكتاب المدخل إلى سيبويه ، وكتاب شرح شواهد الكتاب وما إلى ذلك . وهذه النقلة التي شهدتها بغداد في الحضارة والفكر مهدت أذهان الدارسين لتقبل النحو البصري المتأثر بالفلسفة، والقائم على الجدل والتعليل والاحتجاج، وكان ذلك واضحاً بمجيء المبرد بغداد بنحوه المتأثر بالفلسفة الكلامية، وقد لفت انتباه الدارسين إلى نفسه فأقبلوا عليه يناظرونه في مسائل النحو واللغة، فوجدوا فيه نمطاً جديداً في الدرس لم يعهدوه من قبل، وبمرور الأيام انضم إلى مجلسه نفر من تلاميذ ثعلب ، وفي مقدمتهم أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١٦هـ) الذي انقطع عن مجلس ثعلب ليلازم المبرد، يأخذ عنه ويقرأ عليه كتاب سيبويه. وبهذا استطاع المبرد بقوة بيانه وحذقه أساليب الجدل أن يستأثر بإعجاب الأمراء، واستطاع تلاميذه أيضاً أن يعرضوا مذهبهم الجديد الذي أخذوه عن المبرد على مجالس الدرس، ويبسطوا سلطان النحو البصري عليها من تلاميذهم الذين آلت إليهم رئاسته في النحو كأبي بكر بن السراج (ت٣١٦هـ) وأبي القاسم الزجاجي(ت ٣٧٧هـ) وأبي سعيد السيرافي (ت ٣٦٨هـ) وأبي الحسن الرُّماني (ت ٣٨٤هـ) وأبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) وغيرهم[٢٩]. فتأثر بهم الدارسون على تعاقب العصور وتابعوهم فيما تعصبوا، فكان ظهور النحو البصري على الكوفي البغدادي منعطفاً للدرس النحوي عن نهجه اللُّغوي السليم.

وعلى الرغم من غلبة المذهب البصري، وبسط سيطرته على بيئات الدرس وحظوته بتشجيع الحكام والأمراء ومؤازرتهم إياه بقي المذهب الكوفي محتفظاً بأصالته، مؤثراً حتى في أعلام المذهب البصري ودليل ذلك كتاب الأصول لابن السراج وكتاب الجمل للزجاجي وغيرهما إذ نجد مدى تأثر هذا الدرس الأصيل في الدارسين الذين ميزوا أنفسهم بانتسابهم إلى البصريين. فضلاً عن ذلك تلمذ أبو القاسم الزجاجي وهو أحد دعاة النحو البصري لبعض أعلام الدرس الكوفي البغدادي، وأفاد منهم كثيراً، لأنهم كانوا قد أحاطوا علماً بأصول النحو الكوفي البغدادي وأصول النحو البصري وكانوا " قدوة أعلاماُ في علم الكوفيين، وكان أول اعتمادهم عليه، ثم درسوا علم البصريين بعد ذلك فجمعوا بين العلمين "[٣٠].

وكان البصريون على الرغم من تعصبهم لمذهبهم، وتحاملهم على منافسيهم لم يستطيعوا أن يتجاهلوا المذهب ولا أعلامه، فلم نجد أحداً من القدماء ينكر وجود هذا المذهب، ودليل ذلك كتب الطبقات فيما أثبت منها من طبقات للدارسين في البصرة، وللدارسين في بغداد، أما كتب التراجم التي لم ترتب على أساس الطبقات فلم تغفل نسبة

الدارس إلى المذهب الذي ينتمي إليه، كأن يكون من البصريين أو من الكوفيين أو من البغداديين، أو كأن يكون هذا يتعصب للبصريين وذاك يتعصب للكوفيين، وغيرها من ألفاظ وعبارات تضع الدارس في الجماعة التي ينتمي إليها. أما المتأخرون من النحاة فلم يجدوا أمامهم إلاّ مصنفات في النحو تضمنت وجهات نظر مختلفة، فراحوا يختارون هذا الجانب أو ذاك بحسب ملاءمته لأسلوب الدرس الذي اصطنعوه.

وأخذ الدارسون العرب الخطوة نفسها فتناول صاحب (ضحى الإسلام) النحو بالدرس مع ما تناول من موضوعات تتعلق بالحضارة العربية والفكر العربي، وعرض في تناوله النحو للمذهبين النحويين مذهب أهل البصرة، ومذهب أهل الكوفة ووازن بين المذهبين[٣١].

ثم هيأ بعض الدارسين أنفسهم للدعوة إلى إحياء النحو وتخليصه من الشوائب التي فتح الباب أمامها إليه دارسون لم يفهموا من الدرس النحوي إلاّ تعليلات فلسفية، وتأويلات بعيدة، تقديرات لا تحتملها النصوص فكان مآل هذا الدرس الحيوي إلى الجمود.

فكان أول صوت ينادي إلى إعادة النظر فيما آل إليه الدرس النحوي من مآل يهدد الدرس بالجمود المميت هو صوت الأستاذ إبراهيم مصطفى في كتابه (إحياء النحو)، وتوالت الأصوات الصارخة لتخليص النحو مما علق به، ومنها ما تصدى له الدكتور شوقي ضيف، إذ نشر كتاباً لابن مضاء القرطبي (ت ٥٩٢هـ) (الرد على النحاة) وقدم فيه مقدمة تدعو إلى إحياء النحو وتخليصه من أصول الفلسفة والمنطق، مع اختلاف الهدف بين إبراهيم مصطفى والدكتور شوقي ضيف. ومهما يكن من أمر فالنحو الذي ورثناه هو النحو الذي بسط سلطانه على مجالس الدرس، وهو النحو البصري الذي اصطبغ بالصبغة الرسمية، ولكنه نحو مشوه لم يبقَ فيه أثر لما كان في نحو البصريين الأوائل من قوة، فقد أُثقل بالتعليلات وأفسد بالتأويلات والتقديرات، حتى صار كأنه فرع من فروع الفلسفة، ومع ذلك نرى من الباحثين من يقول: " إن البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلاً، وأن طريقتهم أكثر تنظيماً، وأقوى سلطاناً على اللغة "[٣٢]. ولم يقف الأمر عند هذا التعسف، بل ظهر دارسون محدثون تابعوا المذهب البصري وتعصبوا له حتى بلغ بهم التعصب أن يطرحوا آثار الكوفيين وآراءهم وأقوالهم، ثم يتحاملوا عليهم ويشككوا حتى في أن يكون لهم مذهب على حدة، وربما خلط بعض صغار النحاة في عصرنا فراح يعرض لآراء الكوفيين ويضعّفها.

المحور الثاني: موازنة بين المصطلح البصري وغيره

لا بُدَّ لنا أنّ نبيّن كيفية استعمال المصطلح النحوي عند بعض النحاة الذين يمثلون كلا المدرستين. فمثلاً يقول البصري: النعت، والكوفي الصفة، والبصري عنده بدل وعند الكوفي الترجمة، ويسمي البصري ظرفاً والكوفي صفة أو محل، وحروف الجر عند البصري والإضافة عند الكوفي، ويقول البصري الجر والكوفي الخفض وضمير الشأن عند البصري

وضمير المجهول عند الكوفي وهكذا. فسيبويه من البصرة يعمد إلى استعمال مصطلح (الحال) وأفرد له باباً سماه (باب ما ينتصب لأنه حال صار فيه المسؤول والمسؤول عنه) ومثل لذلك نحو: " ما شأنك قائماً؟ " ونحو: " شأن زيدٌ قائماً؟ " إذ قال: هذا حال، وانتصب بقولك: (ما شأنك)، كما ينتصب الحال (قائماً) في قولك: " هذا زيدٌ قائماً " بما قبله(٣٣).

أما عن المدرسة الكوفية فقد تمثلت الموازنة مع (الفرّاء) إذ استعمل مصطلح (القطع) بدل الحال ففي إعراب قوله تعالى: ﴿ **وأمرأته حمّالة الحطب**﴾(٣٤) قال: ترفع (الحمالة) وتنصب، فمن رفعها فعلى جهتين: يقول: سيصلى نار جهنم هو وامرأته حمالة الحطب تجعله من نعته، والرفع الآخر وامرأته حمالة الحطب، تريد: وامرأته حمالة الحطب في النار، فيكون في جيدها هو الرافع، وإن شئت رفعتها بالحمالة كأنك قلت: ما أغنى عنه ماله وامرأته هكذا، وأما النصب فعلى جهتين: إحداهما أن تجعل الحمالة (قطعاً)؛ لأنها نكرة: ألا ترى أنك تقول: وامرأته الحمالة الحطب، فإذا ألقيت الألف واللام كانت نكرة، ولم يستقم أن تنعت معرفة بنكرة. والآخر: أن تشتمها بحملها الحطب، فيكون نصبها على الذم(٣٥).

أما ما عرضه ابن الأنباري في كتابه (الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين) من مسائل خلاف بين المدرستين فدليل واضح على اختلاف المصطلح بينهم ومن تلك المسائل ما يبيّن مدى اختلافهم في المصطلح ما ذكره في المسألة (المائة) إذ ذكر تسمية ضمير الفصل عند المدرستين فقال: ذهب الكوفيون إلى أنّ ما يفصل به بين النعت والخبر يسمى (عماداً) وله موضع من الإعراب، وذهب بعضهم إلى أنّ حكمه حكم ما قبله، وذهب بعضهم إلى أن حكمه حكم ما بعده، وذهب البصريون إلى أنه يسمى (فصلاً) لأنه يفصل بين النعت والخبر إذا كان الخبر مضارعاً لنعت الاسم، ليخرج من معنى النعت كقولك : زيدٌ هو العاقل، ولا موضع له من الإعراب. أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا: إنما قلنا إن حكمه حكم ما قبله: لأنه توكيد لما قبله فتنزل منزلة النفس إذا كانت توكيداً، وكما أنك إذا قلت: جاءني زيد نفسه، كان نفسه تابعاً لزيد في إعرابه فكذلك العماد إذا قلت: زيدٌ هو العاقلُ يجب أن يكون تابعاً في إعرابه، وأما من ذهب إلى أن حكمه حكم ما بعده قال: لأنه مع ما بعده كالشيء الواحد، فوجب أن يكون حكمه بمثل حكمه. وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا: إنه لا موضع له من الإعراب؛ لأنه إنما دخل لمعنى وهو الفصل بين النعت والخبر، ولهذا سمي فصلاً، كما تدخل الكاف للخطاب في ذلك وتلك وتثنى وتجمع ولا حظَّ لها من الإعراب، وما التي للتوكيد، ولا حظَّ لها من الإعراب(٣٦). مصطلح التفسير أطلقه الفرّاء على ما عرف عند البصريين باسم المفعول لأجله كما في قوله تعالى: ﴿**يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ**﴾ (٣٧) قال:" نصب (حذرَ) على غير وقوع من الفعل عليه لم

ترد يجعلونها حذراً، إنما هو كقولك: أعطيتك خوفاً وفرقاً، فأنت لم تعطيه الخوف، وإنما تعطيه من أجل الخوف فنصبه على التفسير، ليس بالفعل "[٣٨].

كما أطلقه على التمييز إذ يقول: " والمفسر في أكثر الكلام نكرة كقولك، ضقت به ذرعاً، وقوله: " ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا ﴾ [٣٩] فالفعل للذرع، لأنك تقول: " ضاق ذرعي به " فلما جعلت الضيق مسنداً إليك قلت: ضقت، جاء الذرع مفسراً، لأن الضيق فيه، كما تقول هو أوسعكم داراً، دخلت الدار لتدلّ على أن السعة فيها لا في الرجل "[٤٠].

وأيضاً مصطلح (الضمير المجهول) فهو اصطلاح كوفي يطلقونه على الضمير العائد إلى غير مذكور تقدّم، والضمير إنما يكون معلوماً إذا تقدّم مذكور، ويسميه البصريون ضمير الشأن، والقصة، والحديث، والأمر، والجملة بعده تكون خبراً عنه وتفسيراً له[٤١].

هذا الضمير يكون متصلاً مرفوعاً ومنصوباً، كما يكون منفصلاً مرفوعاً وهو ضمير غيبة يقدم لتفخيم الكلام فلا يقال: (هو الذبابُ يطيرُ)[٤٢]. ويخصص النحويون الضمير الدال على مؤنث باسم ضمير القصة، ويجعلونه مكان ضمير الشأن والأمر مثل: إنها جاريتك منطلقة. مصطلح (الصلة) هو مصطلح عند الفرّاء لما يسميه البصريون بالزيادة والحشو ففي إعراب قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾[٤٣] يقول: (العرب تجعل (ما) صلة في المعرفة والنكرة واحداً)[٤٤]. وقد نسب ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) الصلة والحشو إلى الكوفيين، كما نسب الزيادة والإلغاء إلى البصريين[٤٥] على أن النصوص النحوية تنطق بنسبة مصطلح الحشو إلى سيبويه، وكل هذه المصطلحات بمعنى واحد، إلاّ أن الفرّاء اختار مصطلح (الصلة) ليطلقه على الزيادة في القرآن الكريم، تورعاً من أن ينسب الزيادة إلى كتاب الله، لأن مفهوم الزيادة أن يكون دخولها كخروجها، لكنها عند النحويين لا تأتي للإهمال، وإنما تكون توكيداً وتقويةً للمعنى المراد من النص[٤٦].

الخاتِمة : في نهاية البحث لا بد من تقديم أهم ما توصل إليه:

إن الانتقال من المعنى اللغوي إلى المعنى العلمي؛ أو الاصطلاحي يحتاج إلى مدة طويلة من معرفتها بمعناها اللغوي، ودليل ذلك ما تتبعناه من تطور تاريخي لمصطلح النحو.

وقد كان لاختلاف تحديد السماع والقياس عند البصريين، أثر في غلبة المصطلح البصري فقد كان البصريون يتحرّون الدّقة في السماع اللُّغوي من العرب، فضلاً عن القياس على الكثرة المطردة إذ يحدد هذا الأمر القنوات ويجمع ما تشابه منها في إطار يمكن أن ينضوي تحت مصطلح واحد. اختلط استعمال المصطلحات بين العلماء ،فهناك من استعمل المصطلح الكوفي وهو من البصريين والعكس عند الكوفيين ،فقد نسب ابن يعيش الصلة والحشو إلى الكوفيين، كما نسب الزيادة والإلغاء إلى البصريين على أن النصوص النحوية تنطق بنسبة مصطلح الحشو إلى سيبويه، وكل هذه المصطلحات بمعنى واحد.

ونخلص إلى القول بإنّ غلبة المصطلح البصري لم يكن أمراً اعتباطياً ، بل هو نتيجة لمجموعة من المؤهلات توافر عليها وخلا منها النحو الكوفي ، وهذهِ المؤهلات منها ما يتعلق بطبيعة النحو البصري نفسه ، ومنها ما كان خارجاً عنه ، ينتمي إلى الجو العلمي والثقافي للعصر كلَّه ، وهذا لا يلغي فكر المدرسة الكوفية ؛ لأنها مدرسة حاولت تجديد المنهج وابتكار المصطلح كما علينا أن نستفيد منه في قراءة فكرة الصراع التي انتهت إليه دعاوى التجديد الحديثة في النحو العربي ، فضلاً عن بعض الدعوات التي غالت في تفضيل المدرسة الكوفية وجعلها الأقوى منهجاً وأدق نظراً ، وأقرب إلى روح العربيّة .

الهوامش:

١- لسان العرب (نحا) وتهذيب اللغة (نحا).
٢- يُنظر: أبو الأسود الدؤلي:٢٠-٢٢.
٣- المفصل في تاريخ النحو العربي:١٤، والحلقة المفقودة:١٦.
٤- يُنظر: المدارس النحوية:٥١.
٥- التوبة:٣.
٦- الخصائص: ١٠/٢، أهل القرآن وتأسيس النحو:٩٣.
٧- إحياء النحو:١٢، دراسات في النحو:١٣.
٨- إحصاء العلوم: ٤٩، ويُنظر: المصطلح النحوي:١٦.
٩- الاقتراح: ٣١، ويُنظر: المصطلح النحوي: ١٦.
١٠- طبقات النحويين واللغويين:٣٣، طبقات فحول الشعراء:١٤/١.
١١- المصدر نفسه:٣٤.
١٢- المصطلح النحوي:١٧.
١٣- لمع الأدلة:٩٥.
١٤- مراتب النحويين:٣١، ويُنظر: المصطلح النحوي:١٨.
١٥- طبقات فحول الشعراء:١٧/١.
١٦- يُنظر: المصطلح النحوي:١٩.
١٧- نشأة النحو:٢٤.
١٨- سر صناعة الإعراب:١٥/١-١٧.
١٩- تاريخ النحو العربي:٦٩.
٢٠- يُنظر: المصطلح النحوي:٢٣.
٢١- العقد الفريد:٥٧/٤.
٢٢- نشأة النحو:٢٤.
٢٣- نور القبس:٢٨٧، ويُنظر: الدرس النحوي في بغداد:٨٠-٨١.
٢٤- مراتب النحويين:١٠٢.
٢٥- طبقات النحويين واللغويين:١٥٦.

٢٦- يُنظر: الدرس النحوي في بغداد:٨٢.
٢٧- المصدر نفسه:٨٣.
٢٨- يُنظر: معجم الأدباء:٢٧/٣.
٢٩- يُنظر: الدرس النحوي في بغداد:٨٥.
٣٠- الإيضاح:٧٩.
٣١- يُنظر: الدرس النحوي في بغداد:٩٠.
٣٢- ضحى الإسلام:٢٨٢/٢.
٣٣- الكتاب:٢٦/٢.
٣٤- سورة المسد:٤.
٣٥- معاني القرآن:٢٩٨/٣.
٣٦- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين:٧٠٦/٢.
٣٧- سورة البقرة:١٩.
٣٨- معاني القرآن:١٧/١.
٣٩- سورة النساء:٤.
٤٠- معاني القرآن:٧٩/١.
٤١- الكتاب:٣٥/١.
٤٢- الإرشاد في النحو:٢١٦.
٤٣- سورة آل عمران:١٥٩.
٤٤- معاني القرآن:٢٤٤/١، ويُنظر: المصطلح النحوي:١٧٨.
٤٥- شرح المفصل:١٢٨/٨، ويُنظر: المصطلح النحوي:١٧٩.
٤٦- أبو زكريا الفرّاء ومنهجه في النحو واللغة:٤٤٢.

المصادر:

- أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي: د. فتحي عبد الفتاح الدجني، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٤م.
- أبو زكريا الفرّاء ومنهجه في النحو واللغة: أحمد مكي الأنصاري، القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- إحصاء العلوم: الفارابي، أبو نصر محمد بن طرخان، تحقيق الدكتور عثمان أمين، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م.
- إحياء النحو: إبراهيم مصطفى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٥٧هـ - ١٩٣٧م.
- الاقتراح في أصول النحو: تحقيق أحمد محمد قاسم، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٦م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين: كمال الدين أبي البركات الأنباري (ت٥٧٧هـ)، دار إحياء التراث الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.
- أهل القرآن وتأسيس النحو: مهدي الشمري.
- الإيضاح في علل النحو: أبو القاسم الزجاجي، مازن المبارك، دار العروبة، القاهرة، ١٩٥٩م.
- تاريخ النحو العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري: علي أبو المكارم، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

- تهذيب اللغة: الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، مصر، ١٩٦٦م.
- الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي: عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الوحدة، الكويت، ١٩٧٧م.
- الخصائص: لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، بغداد، ١٩٩٠م.
- دراسات في النحو: طه عبد الحميد، مطبعة الكيلاني،١٣٩١ هـ – ١٩٧١م.
- الدرس النحويّ في بغداد: مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
- سر صناعة الإعراب: ابن جني عثمان، تحقيق: إبراهيم مصطفى وآخرين، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٧٤هـ – ١٩٥٤م.
- شرح المفصل: ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي، مكتبة المتنبي، القاهرة، عالم الكتب، بيروت.
- ضحى الإسلام: أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م.
- طبقات النحويين واللغويين: أبو بكر محمد بن الحسن الزَّبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٣٩٢هـ – ١٩٧٣م.
- طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلاّم الجمعي، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.
- العقد الفريد: ابن عبد ربه، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر، ١٣٧٣هـ – ١٩٥٤م.
- الكتاب: سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، علق عليه: أميل يعقوب، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
- لسان العرب: ابن منظور، جمال الدين بن محمد الأنصاري.
- لمع الأدلة: كمال الدين أبو البركات الأنباري، تحقيق: سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، ١٣٧٧هـ – ١٩٥٧م.
- المدارس النحوية: خديجة الحديثي، الطبعة الثانية، مطبعة جامعة بغداد، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.
- مراتب النحويين: أبو الطيب عبد الواحد بن علي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.
- المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري: عوض حمد القوزي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
- معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء، تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، راجعه: علي النجدي ناصف، دار السرور.
- معجم الأدباء: ياقوت، دار المأمون، القاهرة، ١٩٣٦م.
- المفصل في تاريخ النحو العربي: محمد خير الحلواني، بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
- نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة: محمد الطنطاوي، تعليق: عبد العظيم الشناوي ومحمد عبد الرحمن الكردي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٩م.

Abstract :

Talking about the grammatical terms is linked to the beginnings of grammar establishment . The tales that being submitted at that time included grammatical terms have not included but preliminary signs of grammar science . The tales indicated that Aba Al-Ausud had submitted a terms that is coming to be known as " The spots " . This indicated on the movements of indications and "al Tanwein" term .

The hear and scale in view point of Basra residents had been different , since Basra , owing to its geographical location on Arab Gulf , makes the process of mixture with non- Arabs is an easy process. This , in return , make Basra residents searched for accuracy in linguistic hearing in addition to other scales.

The studies have proved the dominance of Basra term than Kufi term , in addition to other doctrines such as Al-Baghdadi sect . This current study is to clear out this dominance and the source of the strength in the Basra subject via an introduction to the grammatical term that is of two axes : the 1st one : includes reasons of Basra term dominance and the 2nd one ; the balance between the Basra term and others